التناص الديني والأدبي في رسائل ابن أبي الخصال

م. م. إيمان ناصر حسن
كلية الآداب / قسم اللغة العربية

الملخص: يمثل التناص مظهراً أسلوبياً في رسائل ابن أبي الخصال، حين يجعل النص الترسلي متعالقاً مع نص آخر في محاولة لإغناء الدلالة، وهذا بحقيقة الأمر يعتمد على قدرة الكاتب وثقافته المتنوعة وسرعة التقاطه لكل ما هو مؤثر ولافت، لذا آثرنا في هذا البحث أن نسلط الضوء على زوايا حية لرسائل نثرية متنوعة للكاتب بغية استجلاء هذا التناص بجميع أشكاله وبيان قدرة الكاتب على المزج بين النص الغائب والنص الحاضر في بنية نصية واحدة تتحد فيها المرجعيات الدينية والأدبية والفكرية لأداء غاية واحدة على اختلاف هذه المرجعيات وتباين مضامينها

ABSRACT

Religious and Literary Textualityin Letters of IbnAbi Al – Khasal

EmanNasirHasan

Dept. of Arabic

College of Arts

Textuality is seen as stylistic phenomenon in the letters of IbnAbi Al – Khasal where he connects the letter text with another one so as to enrich the meaning. This , in fact, depends on his ability, diversified education and fast acquisition of the effective and attractive things around him. In this paper, the researcher highlights the broad perspectives in different selected letters of the writerto understand the different forms of his Textuality and to show his ability to gather the present and the absent in one textual structure where the religious,

literary and intellectual unite to serve one purpose in spite of the differences among these references.

المقدمة: الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين محمد الأمين وعلى آله وصحبه الطاهرين المنتجبين. أما بعد تزخر نصوص ابن أبي الخصال الترسلية بتناصات دينية وأدبية متنوعة، مما يشكل ظاهرة بارزة في رسائل الكاتب تستحق الدراسة والوقوف على أهم الجوانب التي تعالقت فيها نصوصه الترسلية مع النصوص الدينية والأدبية ،أنتجت نصوصاً جديدة معبرة عن مدى ثقافة الكاتب وثراء مخزونه المعرفي والثقافي وقدرته على التصرف بهذا المخزون بما يخدم مقصده ومراده. يرتكز البحث على محورين أساسيين:

الأول التناص الديني

الثاني التناص الأدبي

أما خاتمة البحث فكانت تلخيصاً لأهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة تتلوها قائمة بهوامش البحث وأخرى بالمصادر والمراجع التي أفاد منها البحث.

توطئة: التناص هو تفاعل النص الأدبي مع نصوص بعينها، سابقة عليه أو معاصرة له على وجه الاختلاف أو الائتلاف، وتضمينها في النص عن طريق آليات متعددة، فيلتحم النص الغائب بالنص الجديد وتتحول دلالته السياقية في النص المأخوذ إلى دلالة سياقية جديدة على الرغم من احتفاظها بمكنون دلالتها الأولى في سياق الغائب. وقد كان النقاد القدامى يسمونه بالسرقة الأدبية، واطلقوا عليه تسميات كثيرة منها: توارد الخواطر، التوليد، الإبداع، التضمين، الاقتباس. وتعد رسائل ابن أبي الخصال من طلائع الرسائل الأدبية في الأدب العربي، مبنى ولغة وصورة وإيقاعاً، وقد أعجب بها مؤرخو الأدب، وفُتن بها

المتلقون. اعتمد ابن أبي الخصال على التناص في رسائله، وأكثر منه وتمثل بعض مظاهره التي رأى فيها ثراء لمعانيه، فقد شكّلت رسائله ميداناً فسيحاً اجتمعت فيه جميع الأجناس الأدبية والدينية، حيث هيمن التراث على هذه الرسائل واهتم الكاتب بتوظيفه بجميع أشكاله وتفاعل معه بوعي وإدراك خليقين بالتقدير فكان يرتاد الأدب منظومه ومنثوره، ويسترفد القرآن الكريم ويستحضر معارفه اللغوية والفكرية والعلمية لرفد رسائله بما يتيح لها النجاح، وبلوغ المقصد، فالنص يمكن ان يكون أشبه بـ ((لوحة فسيفسائية مليئة بالاقتباسات)) [1]. فضلاً عن الاشارات والتلميحات من أجل تأكيد المعنى المراد بوصفها واحدة من عوامل التأثير في النص[2]. وتتجلى ظاهرة التناص عنده من خلال الحضور المكثف للنصوص الغائبة، بما الهمته به قريحته أو أسعفته خزائن ذاكرته، تصريحاً وتضميناً وإشارة وأسلوبا من صورة يبدو فيها واسع الاطلاع، ثر المخزون، جم العلم، غزير المعرفة، قوي الأسلوب، فقد نهل من مرجعيات ثقافية متنوعة، على أساس وظيفي يجسد التفاعل الخلاق بينها وبين رسائله.ومما هو جدير بالإشارة أن استعانة الخصال بالموروث جاء من أجل رفع مستوى الاستجابة للمتلقين، وإثراء الجانب الجمالي للنص، وتوكيد المعنى وترسيخه في النفس. فقد استخدم الموروث نسقاً بنائياً في رسائله وأسلوبا موحياً بما يحس به من مشاعر جنباً إلى جنب الأدوات الفنية الأخرى المشكلة لها فالكل على رأي د. عناد غزوان هو ((الشمول المتناغم مع أجزاء العمل الأدبي)) [3] وقد منحت هذه المتناصات – كما سنرى – رسائل ابن أبي الخصال آفاقاً إبداعية ثرة، تجسد فيها ما يسمى بتداخل النصوص، بما يثبت مبدأ الحوارية بين الأجناس الأدبية تفاعلياً من خلال رؤية إبداعية تلغي انغلاق الجنس الأدبي على نفسه فكل نص ((ينفتح على نصوص أخرى يدمجها في بنية وتمنحه مظهراً مختلطاً ومتجزئاً))[4].

فليس هناك نص منغلق على نفسه مستقل عن غيره فالثقافة في جوهرها اتصال، كما أن الإبداع لا يأتي من العدم فلا بد من وجود معين ينهل منه. إذن

كل عمل أدبي هو نتاج أدبي لغوي لكل ما سبقه من موروث أدبي وهو بذرة خصبة تؤول على نصوص تنتج أو تتوالد عنه.

وقد حفلت رسائل ابن أبي الخصال بتداخلات نصية انحدرت من مصادر ثقافية متباينة ومتنوعة، فتارة يستلهم آيات القرآن الكريم وقصص وأحاديث الرسول (ص)، وتارة أخرى من النصوص الأدبية، ومعرفته للأماكن والشخصيات والأساطير و سنحاول رصد تأثير هذه المرجعيات المختلفة في رسائله، ونكشف عن مدى نجاحه في توظيفها في نصوصه ونستعرضها في هذا البحث على النحو الآتي:

١. **التناص الديني**: تمثل المرجعية النصية الدينية جزءاً مهماً من التكوين الأدبي الذي يستقي منه المبدع منطلقاته الفكرية والثقافية، مما يؤدي إلى حدوث التناص الديني الذي يستحضر فيه الأديب بعض القصص والإشارات والرموز الدينية في سياقات عمله الأدبي إذ يعمق رؤية معاصرة يراها في الموضوع الذي يطرحه أو القضية التي يتناولها. والجانب الديني يعد مرتكزاً مهماً من مرتكزات أبي عبد الله ابن ابي الخصال، لما فيه من اسباب الاستقرار الذاتي والقناعات الذهنية القطعية، والتسليم النفسي المطلق لنصوصه، وهذا بلا شك له علاقة ببيئة الكاتب الدينية التي ترعرع في أحضانها، فقد يشكل القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف جزءاً رئيساً من ذاكرة ابن أبي الخصال، فعمد إلى إدخاله في رسائله، ضمن سياقات مجازية خصبة. مع الانزياح في المعنى أحياناً، ضمن محددات التناص واهدافه، فهما ((معدن الفصاحة والبلاغة))[5] لاستمراره في ذاكرة المتلقي، وإعطاءه زخماً تأثرياً أكثر، فضلاً عن الزخم الروحي الذي تشيعه هذه النصوص الدينية في رسائله. فقد كان القرآن مصدر إلهام لأديبنا، يستلهم نصوصه، دلالةً وتصويراً، مستغلاً طاقته الإبداعية في الوصل بين تجاربه الذاتية

ونصوصه.فوجد ضالته في القرآن الكريم بوصفه نصاً مقدّساً يحمل للإنسان دلالات لا متناهية شديدة العمق والتأثير في كل ما يعرض له من تجارب، فأفكاره ومعانيه قابلة لإعادة التشكيل في كل زمان ومكان.

ومما ينبغي أن ننوه إليه إن ما ورد من تناص مع الآيات القرآنية – كما سنرى – في رسائل أديبنا ابن أبي الخصال ليست حلية لفظية فنية، بل هي ضرورة من أجل تعميق المعاني التي يريد الكاتب إبرازها وإظهارها خلال تلك النصوص. وقد كان اقتباسه من القرآن الكريم على وجهين:

أولهما: إيراد الآيات بصيغتها ولفظها(الاقتباس المباشر) وثانيهما: إيرادها دون النص عليها بصيغتها (اقتباس غير المباشر) ومن نماذج تناصه مع القرآن الكريم ما ورد في هذه الرسالة التي وجهها إلى أحد الرجال المعروف بعلمه ودرايته بعلوم اللغة والدين ويدعى أبا الحسين بن أبي مروان بن السراج، ينفي بها نسبة المقامة القرطبية إليه فيقول: ((يتجافى جنبه عن المضاجع وطلق الدنيا غير مراجع، وتجاوزه إلى ابن عم عم، وكثيراً في المكارم جم))))[6].

وظف الكاتب النص القرآني توظيفاً ينسجم مع أفكاره من خلال المعنى الذي تشير إليه الآية الكريمة، فقد استمد فكرته بألفاظها من قوله تعالى ((تتجافى جنوبهم عن المضاجع)) [7]، مجرياً تغييراً في الضمائر حتى يتناسب مع طبيعة خطابه، وقد جاءت الآية الكريمة في وصف المؤمنين الذين يباعدون جنوبهم عن فرشهم في الليل للصلاة. ومثل هذا التناص مع القرآن الكريم ما نلمحه في هذه الفقرة من تضمين لآية من القرآن تنسجم مع المعنى الذي أراد الكاتب الإفصاح عنه ((لكنك – والله يغفر لك – جرعت الصابي منه صاباً، وملأت صدور شيعه أوصابا، فهم بين جموع منفضة، ودموع مرفضة، ونواظر كليلة و خواطر فليلة ينظرون من طرفٍ خفي ويتظلمون من بر حفي، لا يستقل لهم لواء، ولايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء !))[8]. فالكاتب استفاد من نص الآية (ينظرون من طرف خفي)) [9]. في الرد على الوزير الذي فضل بديع

الزمان الهمذاني على أبي اسحاق الصابي. ويتجلى هذا التناص في رسالة أخرى للكاتب، وهذا نص منها: ((خلق الطير أطواراً وجعل لهم آمالاً وأوطاراً فكل على رزقه غادٍ من بين متحرج وعادٍ، وساجعٍ وشادٍ، فماشٍ على رجلين، وباطشٍ بيدين، وطائرٍ بجناحين، وماشٍ على أربع، وبهائم رتع، وموشيه المتون، ماشيةً على البطون، تنساب وتترفع حبرات بها تتلفع، كأن نسجها على غيرها، فهي تخلع ما تزر وتسحب وتجر، اما انها – وتضرب لكم أمثالكم – أمم أمثالكم، لها من الحمام نصيبها، والأقدار كما تصيبكم تصيبها))[10].

فالكاتب استفاد من ألفاظ القرآن الكريم بقوله ((خلق الخلق أطواراً)) من قوله تعالى ((وخلقكم أطوارا))[11] وأيضا قوله ((فماشٍ على رجلين)) إذ اقتبسها من قوله تعالى ((ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع))[12]، وقوله ((أمم أمثالكم)) اقتبسها من قوله تعالى ((ما من دابة على الأرض ولا طائر يطير بجناحين إلا أمم أمثالكم))[13]. ولقد وظف الكاتب أوصاف الزرزور باقتباس من القرآن الكريم بما يناسب المعنى.ومثل هذا الاقتباس نلحظه في رسالة اخوانية للكاتب جاء فيها ((وألفاظ ليس بها طرق، ولا لها في هذا الغريب غرف، لو مررت بالروضة الغناء، تجلو حسن متبسمها وتضحك ملء فمها، وشجرة تخرج من طور سيناء[14]، وهذي التي تخرج من أصل الجحيم [15]، وتغلى في البطون كغلي الحميم [16]، طلعها رؤوس الأراقم، وطعمها نفوس العلاقم)) [17]. وهكذا يسترسل الخصال في اقتباساته من آيات القرآن الكريم على هذه الشاكلة في عموم رسائله على اختلاف مضامينها[18].ويتجلى التناص الديني أيضاً في استلهام الكاتب للقصص القرآني لرفد رسائله بما يثري معانيها بصورة رمزية، من ذلك استلهامه لقصة موسى مع الخضر ونثرها في رسالته التي كتبها إلى ابن عبدون رداً على رسالة كان الأخير قد أرسلها إليه ((وهذا موسى عليه السلام رفع في العلم إلى نهاية، وشيِّع بآية، فتقبل ما اتاه، وتحمل بفتاه، وتجهز بحوت في منحوت، فكان شأنه

في البحر عجباً، ونسيانه للذكر سبباً فاشتدا عند تذكارهما للبغية قنصاً، وارتدا على آثارهما قصصاً، فلما انتحاه الخضر بسرائر من الغيب مشكلات، وظواهر للريب محتملات، أخذ عليه في إظهاره ببدائعهما، وإيثاره بودائعها، ميثاق الحلم، إلى أن يشهده مصداق العلم، ولولا اسراع وهب في تلك الحكم ريثاً ،وإقشاع اذهب من تلك الديم غيثاً، لدرت أخلاف القصص واستمرت آلاف من القصص))[19].

أما الأحاديث النبوية الشريفة، فقد سجلت حضورها في رسائل أبي عبد الله بن أبي الخصال، وظل ينهل من مشكاتها لإغناء تلك الرسائل قوة وعمقاً، وقد يضمن الحديث بنصه أو يقتبسه فينثره في ثنايا رسالته ويطوع الفاظه لسياقه العام كقوله في إحدى رسائله يعزي القاضي الإمام أبي الوليد بن رشد بابنه: ((فإنما المؤمن خامة زرع، و ذؤابة فرع تفيئها الرياح يميناً وشمالاً، وتلين في يديها إدباراً وإقبالاً، والكافر ارزة مجذية تتحاماها المعرة، ثم تكر عليها كره فيكون انجعافها مرة [20]. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)[21] ((إذا أراد الله بعبده الخير عجل الله له العقوبة في الدنيا، وإذا اراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة)) وقال (صلى الله عليه وسلم) [22] وقد سئل ((أي الناس اشدّ بلاء ؟ فقال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل فيبتلى الرجل على حسب دينه: فإن كان في دينه صلباً أشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة أبتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة)) وقال (صلى الله عليه وسلم)[23]: ((ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده، ماله، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة))[24].

وواضح ان الاقتباسات من الأحاديث النبوية الشريفة تتوالى في هذ النص وتتفق مع موضوع الرسالة وهو التعزية وبيان ما للمؤمن من أجر وثواب في آخر وما للكافر من عقاب، فضلاً عن حث تلك الأحاديث على الصبر على البلاء. ومن امثلة تناصه مع الأحاديث النبوية الشريفة أيضاً ما ورد في مراجعته

لأبي بكر بن العربي: ((فأما الكفر فهو لنفس المنعم مخبثه، ولدفين الاعتداد مثاره ومنبثه. وأني لأراه بما يجب له من الإعظام، وانتظم بهواه كل الانتظام، وأرفع ذكره في كل ناد، واهيم من حبه في كل واد واهفو إلى لقائه ليناولني فضل سقائه، ومن لي وقد فاتتني الهجرة أن أكون من طلقائه)) [25]. فالكاتب في هذا النص يشير إلى الهجرة إلى المدينة وحديث الفتح ((اذهبوا فأنتم الطلقاء)) وقد أورد هذا الحديث الشريف عل سبيل الاستفادة و التمثيل.ولابن أبي الخصال رسالة إلى المقام النبوي وظف فيها عدداً من الأحاديث النبوية ومنها هذا النص: ((إلى الرؤوف الرحيم، الرسول الكريم،.... خطيب الأنبياء وإمامهم في اليوم المشهود.....الذي جُعلت له الأرض مسجدا وطهورا، وانزل عليه من القرآن هدىً ونورا))[26].

ففي قوله (خطيب الأنبياء، وإمامهم في اليوم المشهود) اقتباس من قول الرسول الكريم [27] ((وأنا اول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا) كما أن قول الرسول (ص)[28] ((وجُعلت الأرض لي مسجدا وطهورا))، وجد فيه الكاتب ما يعينه على التعظيم من شأن ومكانة الرسول الكريم، فضلاً عما ذكره في سياق نصه. وهكذا تأثر ابو عبد الله ابن أبي الخصال بالسيرة النبوية واكثر من مفرداتها، وتعامل معها تعاملاً ذكياً يدل على قوة تأثره بنصوصها ومعانيها، الأمر الذي يعكس إعجابه واهتمامه بها، فيدرج ذلك على لسانه في إبداعه النثري، الذي يترصع بها.

٢. **التناص الأدبي**: شكّل النص الأدبي عند ابن أبي الخصال ظاهرة فنية ودلالية أثرت رسائله بما استدعته من نصوص أدبية غائبة أو فنية او لكليهما معاً. وقد أكثر في رسائله من حل أشعار المتقدمين والمتأخرين أو البليغ من كلامهم، فكل هذا كان له حضور في رسائله على تفاوت مساحة وحضور لكل منهما في الرسالة الواحدة، وظّفه الكاتب من خلال تداخل النصوص

الأدبية المختارة مع نصوص رسائله، بحيث تكون هذه العناصر التراثية منسجمة مع النص، ودالة على الفكرة والحالة التي يجسدها الكاتب.

وقد يتضمن النص الواحد تناصات أدبية متنوعة في أجزائها وأشكالها، وقد يكون التناص مباشراً أو غير مباشر بالمعنى أو المبنى، وهذا التناص يدخلنا عالم التضمين والاحتمال. ولقد حاول ابن أبي الخصال المزاوجة بين الواقع والتراث بوصف الماضي هو جزء من الواقع وهو يسهم في تكوين النص الجديد. فلا بد للأديب المعاصر من الاتصال ببوتقة الماضي، وتراث امته وقومه لأنه إذا فقد الاتصال بماضي أمته يصبح عاجزاً عن التعبير عن وجودها الحي[29]. وهذه المضامين التراثية أدرجها الكاتب ضمن نصوصه الترسلية لإثراء النص الجديد بها، ومن ثم دعوتنا إلى التفكير في مغزى التوظيف وعلاقته بالنص. ولقد استوعبت رسائل ابن أبي الخصال مضامين تراث الأدب العربي، وهو أمر يدل على سعة ثقافة الكاتب، وعنايته بالأدب القديم، لما يحمل من عمق في المعاني والدلالات، حتى صار هذا التراث معبراً عن جميع ما يطرحه من موضوعات وأغراض عما يختلج في نفسه من مشاعر وأحاسيس [30]. وبذلك ارتبط أديبنا ابن أبي الخصال بالتراث ارتباطاً وثيقاً وتمسك به، لأنه الأساس الذي لا يستطيع أن يتخلى عنه. وسيحاول البحث دراسة التناص الأدبي في رسائل ابن أبي الخصال على النحو الآتي:

أ. التناص مع الشعر: يعد الشعر مصدر ثراء في رسائل ابن أبي الخصال وصورة من صور التقاء الأجناس الأدبية المتباينة في طبيعة تشكيلها، وهومن أهم النصوص الفنية التي تظهر فيها قدرته على الجمع بين جنسين أدبيين مختلفين، وإعادة إنتاج نص جديد مستقل بذاته يجمع بينهما.

وقد أجاد الكاتب في الإفادة من هذا الجنس الأدبي شكلاً ومضموناً، واستطاع أن يلوّن نصوصه النثرية به، فاستعان بالذخائر الفنية المتوارثة في الشعر العربي جاعلاً منها عناصر بناء ذات قيمة جمالية متساوقة مع مقاصد

رسائله. ولم يقف ابن أبي الخصال على نص معيّن، وشاعر محدد للتناص معه، بل كان يتحرى قدرة هذا النص على إثراء الجانب الدلالي للرسالة، والتفاعل معها للوصول إلى الغاية المنشودة. وقد يلجأ إلى توظيف مجموعة أبيات لشعراء مختلفين في رسالة واحدة بما يتناسب مع سياق الموضوع الذي يتحدث عنه، وهذا ما سنلاحظه من خلال استحضارنا لنصوص رسائله فيما بعد.

ومن أمثلة تناصه مع الشعر ما ورد في هذه الرسالة التي دبجها الكاتب، في التهنئة لعامل على ولايته ((يا عمادي الأصم، ومصادي الأعصم، وردء استظهاري الأكرم، وإمامي الأهدى في الخطب أن أعتم، ومن أطال الله بقاءه لعز يستأنفه مشيد، وعمر يستقبله جديد، ومهل سائغ الظل مديد – كتب – أدام الله عزك – والقتاد ثمار، والثمار غمار، وعود الزمان – بعودتك الحميدة – نضار، أجل لقد شبّ بعد الهرم، وأعرب عن عهد صريح الكرم، وإن دهراً لبس رونق بهائك، وملكاً شد باكتفائك،، وأوثر ببقية عمرك الزاكية وغنائك، لجدير أن تضحك رياضه، وتفهق حياضة، وتجم أمواله على العلل، وتبرأ أحواله من الأعراض والعلل، وتطرد بالسداد ومصالح العباد قوانينه، وتتقد بمصابيح الاتقان والإحسان دواوينه، وتنتظم الفوائد في سلكها فرائد فتسر الناظر، وتبهج الزائر، بحقائق في حدائق، خطرت بالجداول، وقصرت عنها يد المتطاول، فكأنها سماء ملئت حرساً شديداً،وشهباً لا تلبث لاستراق السمع مريدا، فكم مخطوم منها بخطام ومكعوم بكعام من تهذيب نسق الحقوق وتقصاها، ويتلون (يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) فالحمد لله الذي أحيا الأعمال منك يزدانها، من بعد ما ضرب على آذانها، فشول الفيء تكسع بأغبارها وعلب الحلب تملأ إلى اصبارها، فهنيئاً لراعي الأمة، وكاشف الغمة...)) [31]. الكاتب كما هو واضح في هذا النص يوظف بيت الحارث بن حلزة:

لا تكسع الشول بأغبارها أنك لا تدري من الناتج ![32]

فابن أبي الخصال هنأ هذا العامل ونصحه بأن يحسن استخدام الفيء وصرفه، كما أحسن الحارث بن حلزة نصحنا في بيته بأن نحسن استغلال هذه الناقة فأننا لا نضمن الظروف فقد تموت هذه الناقة وقد نغذى فيذهب لبنها سدى، فالكاتب أفاد من هذه الصورة القديمة وأحسن استرفادها في رسالته، ومع أن طوع القالب اللفظي الذي حمل شطراً من بيت الحارث دون الإشارة إليه لخدمة أسلوبه النثري في الرسالة ودمجه بإحكام.

إلا أن الصورة الموظفة استمرت دالة على أصلها الناجز منذ القدم، وفي ذلك تأكيد براعة الكاتب في توظيف الشعر في سياق النثر إذ جعل شول الفيء تكسع بأغبارها إثباتاً وقد وردت في بيت الشاعر نهياً.

وللكاتب رسالة أخرى وجهها إلى صديقه أبي بكر، تضمنت قضايا تهم بعض اصدقائهما: ((وهذا صديقنا الكاتب أبو إسحاق السهيلي، قد صدق فاله، وانثالت انفاله، فلا يخلو يوماً من نزع لبوس، ونهاب نفوس، ولقد ترشح للشكر والشكم، وقعد ببسطة للحكم، وفتح باباً في صد البر وجعله لهدية السر، فنحن جفر أبرق، وإلى ديك أفرق، وأرعى من الفراخ أخرق... الى أن يقول في آخر رسالته: ((رزقنا الله نفوساً مطمئنة، ولا أعدمنا من لدنه فضيلة ومنة، بعزته وقدرته، وأما الكتب التي أعددتها ونحوي وفدتها، فوالله ما لمحت قبل كتابك هذا من أشبيلية كتاباً، ولا برحت بغيب الأيام فيك مرتاباً، ولا أتحقق لك حلاً، ولا ترحالاً، ولا أعلم لك على الحقيقة حالاً، وليأس من الغرض الذي أدرجته في هذا الوقت لم أعرض فيه بالتذكرة ولا عرضت بأمور غير مسفرة، وعندنا رجاء وعند الله من وحباء:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع[33]

ولابد لي من متابعة برك، والإيضاح لي عن جلية أمرك وكيف صدرت، ومتى انحدرت والسلام))[34]. أراد الكاتب من خلال هذا النص أن يثبت لصاحبه مدى حرصه على ما أراده، وإن طبيعة النفس إذا ما ألزمها بشيء مهما قل ذلك فأنها حينئذ تلزم ما أردتها لها، وأنه كما قال (وليأس من

الغرض الذي أدرجته، في هذا الوقت لم اعرض فيه بالتذكرة ولا عرضت بأمورٍ غير مسفرة وعندنا رجاء...). ومن هنا فأن المتأمل في توظيف الكاتب لبيت أبي ذؤيب الهذلي في هذه الرسالة تمثله للفكرة التي أقام عليها الشاعر بيته، ورسخوها في ذاكرته الأدبية الخاصة، فوظفها في بناء رسالته وجعلها شاهداً على المعنى الذي رامه. ويظهر التناص الأدبي في رسالة أبي عبد الله بن أبي الخصال التي كتبها إلى فقيه العصر ابن أبي بكر عربي ((الفقيه الآجل. الإمام بمناقبه الثواقب، وكرمه المتعاقب، وسؤدده المتناسق المتصاقب، لايخفر لديه الذمام، ولا تبلي جدة وده الأيام. يلم الاخوان على شعث، وينبعث إلى صلتهم كل منبعث، ويغفر عوراء الصديق، ويأذن لعذره إذن التصديق. ولا يلزم الضعيف ذنب المطيق، ويرتفع جلاله عن الظن، ولا يكدر معروفه بالمن، لا سيما عند من يعرف ويعترف، ويمضي في سنن شكره ولا ينحرف. فأما الكفر فهو لنفس المنعم مخبثة، ولدفين الاعتداد مثارٌ وومنبثة[35]))[36].

يتناص الكاتب في هذا النص مع بيتين احدهما للنابغة:

ولست بمستبقٍ أخاً لا تلمه على شعثٍ أي الرجال المهذب[37]

والآخر لعنترة:

نبئت عمراً غير شاكر نعمتي والكفر مخبثة لنفس المنعم [38]

الكاتب في هذا النص أظهر قدرته على تحوير معنى البيتين والتصرف فيهما تصرفاً قلبه إلى صفة الإثبات ليتناسب مع مقصده، فالمعنى في البيت الأول جاء منفياً (ولست بمستبق أخأ لا تلمه). فأديبنا ابن أبي الخصال تعمد أن يأتي بالفعل (تلم، من الشطر الأول لبيت النابغة وحذف أداة النفي ثم أتى بلفظ (شعث) من الشطر الثاني وما تدل عليه هذه اللفظة من معنى الفرقة، ثم أخذ أخاً وجمعه على اخوان ليصب في هدفه من هذا التوظيف، وهنا تأتي مكانة الأديب ومقدرته في أخذ ما يخدمه من النصوص وحسن توظيفهما بما يتناسب مع المعنى الذي اراد الإفصاح عنه. أما بيت عنترة، فأن الكاتب انتقل من معنى إلى معنى، ففي الوقت الذي كان يشيد بفضل ابن العربي وعدله

وحرصه على لم الشعث، نراه فيما بعد ينبه إلى أحد القضايا الاجتماعية والنفسية المهمة ليبدأها بـ (أما) فكأنما لا علاقة بما سبق لأول وهلة، وهي مع ذلك تنبئ عن زيادة صفة على صفات الممدوح، وقد أجاد الكاتب في الأخذ بما يخدم هدفه وقدم و أخر في بيت عنترة ليضبط السجعة، وذلك مطلب اشار إليه الكلاعي حيث قال: ((إذا ضمن الكاتب في رسالته اشعاره كما يوافق بين قافيتها وبين السجع الذي قبلها ليعلم بذلك أن الشعر له، وكان إذا ضمن اشعار غيره خالف بين السجع والقافية وهو حسنٌ يجب أن يتمثله من أراد إحكام صنعة الكلام))[39]. إذن مقدرة الكاتب تبدو واضحة في هضم ما استرفده من أشعار الجاهليين ومن ثم توظيفه الفني لهذين البيتين الذي يعتمد على الجزء والتحوير بعد انتقاء ما يفيد المعنى الذي قصده فتفاعل نصه مع النص القديم وخرج بتركيب جديد يخدم المغزى. ولابن أبي الخصال رسالة في الوساطة وجهها إلى عين من الأعيان فألفاه نائماً، فبيّن مقصده من الرسالة وأشار إلى الواقعة ((قصدت – أطال الله بقاءك، ومكن علاءك – منزلك الرحب – لا زال مقصوداً – وزاحمت فيه بعد وفود التهنئة وفوداً؛ فألفيتك قد أمعنت في السرى، وحللت بوادي الكرى، ونمت – لا نغصت – نوم من أذكى عيناً، وولد للأعادي رغماً وحيناً، فآثرتك بلذيذ كطعم الصرحذي، وانثنيت بغلتي عن ذلك الندي، وتركت راحتك في سردها، وعينك – لا أرقت ! – مستمتعة ببردها، متلفعة بالسنة وبردها، وتخطيت محلك إلى ما وراءه وعقدت شوقي إزاءه، لترجعني عليك الرواجع، وتصح للإدراك الواجبة المراجع))[40] فالكاتب في هذا النص اكتفى بوصف المرسل إليه، واختصر مقصده في كلمات ليعبر عنه من خلالها، ناثراً في ثنايا نصه بيتاً للشاعر قيس بن الملوح:

وأرمي إلى الأرض التي من ورائكم لترجعني يوماً عليك الرواجع[41]

وقد أحسن ابن أبي الخصال في استحضاره لمعنى هذا البيت ووظفه بما يتساوق وينسجم مع نصه، معبراً بذلك عن مقدرته الأدبية وموهبته في المزج بين المنظوم والمنثور.وقد يتناص الخصال في بعض رسائله مع شعر لشاعر

أندلسي من ذلك ما ورد في رسالة جوابية إلى صديق له ((فلله نظرة هبوبها ومسراها، ويا نعمها ريحاً، وما أخطرها واسراها ؛ تنفح بالمسك يمينها ويسراها، ألذ من الأجفان من سنة كراها، وأطيب في النفوس من عشيات الحمى وذكراها حين استبحنا من اللذات حماها))[42]. مدح الكاتب صديقه وعدد صفاته الحسنة وهو جدير بها،و قد اعترف الجميع له بها، فله المحبة والإخلاص من قبل الأحباب، وله المكانة الأدبية التي يحسد عليها، فقد ترك الأثر الطيب في النفس تعبق روائحه في كل صوب كالمسك يميناً وشمالا.

وجملة الكاتب (ألذ في الأجفان من سنة وكراها) مأخوذ من بيت شعر لابن عمار الأندلسي من قصيدة مدحية إذ يقول مادحا المعتضد بن عباد:

أندى على الأكباد من قطر الندى والذ في الأجفان من سنة الكرى

فقد حل الكاتب قول الشاعر ووظفه في الغرض نفسه من الموضوع وهو (المدح) وجاء التوظيف هنا مناسبا لما أراده في سياق نصه، وقد أحسن في وصفه ودقة اختياره لهذه العبارة من البيت الشعري والتي تدل على قدرته الفائقة على انتقاء الألفاظ المناسبة ووضعها في المكان الملائم.

ب. التناص مع الأمثال والأساطير: انتقلنا من الشعر إلى الأمثال والأساطير التي وظّفها أو تناص معها الكاتب في رسائله، سنجد أن ابن أبي الخصال يمتلك حساسية عالية حيال أمثال العرب وقد تمثلها في رسائله كلما كان ذلك موافقا للموقف أو المناسبة أو تطلبه المعنى لتوكيده.

والأمثال تحمل دلالة ثابتة لا يستطيع المبدع أن يبدلها في سياقها الموضوعي والتاريخي، بيد أن يستطيع ان يتصرف بها من حيث توجيهها في النص الجديد سواء كان ذلك على سبيل المخالفة أم على سبيل الموافقة، وقد احسن كاتبنا أبو عبد الله ابن أبي الخصال في الإفادة من الأمثال العربية، إذ يضع المتلقي أمام قصة المثل، ليكون أكثر تفاعلاً مع رسائله، واستجابة لغرضه. وقد ورد كثير من الأمثال العربية في رسائل الكاتب في شتى موضوعات

رسائله وقد أحسن توظيفها في سياق نصوصه ومن ذلك رسالة جوابية للكاتب إلى أحد أصدقائه يخبره بوصول رسالته إليه يقول: ((وحبذ منتماك ! لقد ذكر جواراً، وحرك من عهدنا الماضي حواراً. لا جرم أن عهدي لك ناظرٌ، وأنه بك على الغيبة القصية حاضرٌ))[43]. لقد استحضر الكاتب في نصه جزءا من المثل القائل (حرك لها حوارها تحن)[44].

إذ وظّف كلمتين من المثل (حرك، حوار).

وقد يعمد الكاتب إلى تحوير المثل بما يخدم سياق نصه، وعادة ما يكون التحوير في المعنى أو في كلمة من كلمات المثل، أو جزء منه، وهذا التحوير – بلا شك – يحمل مدلولات واسعة في النص الترسليإذ يستخدمه الكاتب عادة لموقف مشابه موقف أو حكاية المثل الأصلي، وقد يكون عكس ذلك، فالاستخدام يكون في غير معنى المثل الأصلي. ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة لابن أبي الخصال على لسان علي بن يوسف بن تاشفين يقول في: ((فكتب إليه مستدعياً من كلامه ما أثبته في الديوان، وانبته فيه زهر بستانه،.... فكتب إلي مراجعاً، الحذر اعزك الله، يؤتى من الثقة.... وأنا بنفسي أعلم، وعلى مقدار أحوط وأحزم، أو المعيدي يسمع به لا ان يرى، وإن وردت أخبار تترى))[45]. استخدم الكاتب في هذا النص مثلين محوّرين لفظاً ومعنى، إذ أخذ عبارة (الحذر يأتي من الثقة) من المثل القائل (من مأمنه يؤتى الحذر)[46]، وأخذ عبارة (المعيدي يسمع به لا ان يرى) من المثل القائل (أن تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه) [47]. فالكاتب – كما يبدو – حاول الذهاب لعلي بن يوسف بن تاشفين ولكنه شغل عنه، فأرسل إليه رسالة رد عليه بها بأنه حذر ولكن الحذر يؤتى من مأمنه و ثقاته، وهو عبارة بمقداره أعلم وأحزم ويفضل أن يبقى بعيداً، فالمعيدي نسمع به و لا نراه، وقد وصلتنا أخباره ولقد استدعى الكاتب هذين المثلين لغرضين: الأول على قول قائله وخوف الأمير علي بن يوسف من ثقاته على الرغم من حرصه، والثاني: ليعلم بأن سماعك بالأمير أفضل من رؤيته، ولا يقصد الكاتب بذلك التقليل من شأن الأمير إنما

قصد الحرص والحذر منه. فالتناص جاء هنا لخدمة النص، إذ اتفق مع العبارات التي يريد الكاتب إيصالها، وهذا التحوير في المثلين – بلا شك – ينم عن قدرة بالغة لدى الكاتب في صياغة الكلام بأسلوب آخر ولمغزى مختلف. وأن مثل هذا التحوير بالمثل نراه في رسالة أخرى لأبي عبد الله بن الخصال بعث بها إلى أحد أصدقائه ((.... وكأنه من طيب نفسه من الأشهر الحرم، أو من بني سعيد أعزة الحرم، ولئن تممت على ما أراه ليذمن عند الصباح سراه، وليرين من الفزع ما رآه صاحب أبي بصير)) [48]. استغل الكاتب المثل القائل (عند الصباح يحمد القوم السرى))[49]، إذ استخدمه بخلاف معناه، وكأنه يريد القول أن الأمثال ليست كلها تنطبق على أحوال جميع البشر، ويمثل هذا القول صياغة جديدة للأمثال القديمة بأسلوب جديد مخالف للنص الأصلي الذي وردت عليه. أما المعتقدات والأساطير فهي جزء من التراكمات الزمنية العميقة، وتشمل كل ما يؤمن الأفراد فيما يتعلق بالعالم الخارجي والعالم الخرافي. وهي من أقل المتناصات تداولاً في رسائل ابن أبي الخصال، فمن الأمثلة على توظيف المعتقد من صورته القديمة وإبرازه في سياق النص الجديد ما جاء في رسالة له بعث بها إلى أحد القضاة: ((.... لا جرم أني بعد أن لثمت ثراها، وقدست ورودها وسراها وقريتها من التعظيم قراها، رمت الترفع في مضمارها، والتطلع في أنوارها، بل التلفع بغبارها، والتعلق بأذيال آثارها فرأيت شأواً لا يتعاطاها البرق، وتبرزا يسلم له المغرب والشرق، فقبلت أمر ابن معدي كرب، وتركت العنقاء المغرب...))[50]. فالمتأمل لهذا النص يلاحظ كيف وظّف الكاتب معتقداً كان يعرف عند العرب باسم طائر العنقاء.

الخاتمة ونتائج البحث

١. أفاد ابن أبي الخصال من الموروث الديني والأدبي والأمثال والأساطير كمتناصاتتعالقت معها نصوصه الترسلية وتولدت منها نصوص جديدة تخدم الموضوع الذي أراد أن يعبر عنه الكاتب.
٢. برز القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف من بين تناصات الكاتب بشكل واضح مقارنة بتناصاته الأدبية فضلاً عن تناصاته مع الأمثال والأساطير.
٣. كشفت تناصات ابن أبي الخصال الدينية والأدبية عن ثقافة الكاتب المتنوعة وحافظته الثرية والتي شكلت معيناً لا ينضب من صور الكاتب وألفاظه.

الهوامش:

1. تحليل الخطاب الشعري – استراتيجية التناص– محمد مفتاح، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥: ١٢١.
2. بنظر المثل السائر لابن الأثير، ج ٣، ص٢٠٣.
3. التحليل النقدي والجمالي للأدب، عناد غزوان، دار آفاق عربية للصحافة والنشر، بغداد، ١٩٨٥، ص ٦٥.
4. أدوارد الخراط قضايا بتجنيس النصوص السردية، عبد المالك اشهبون، مجلة العلوم الإنسانية، كلية الآداب، جامعة البحرين، ع١٦ / ١٧، ٢٠٠٩، ٦٥، وينظر علم لغة النص، د. عزة شيل محمد / تقديم د. سليمان العطار، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٧٧.
5. ينظر حسن التوسل إلى صناعة الترسل / شهاب الدين محمود، تحقيق أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠، ص ١٦.
6. رسائل ابن أبي الخصال، ص ٣٦.
7. سورة السجدة / الآية ١٦.
8. رسائل ابن أبي الخصال، ص ١٤٣.
9. سورة الشورى / الآية ٤٥.
10. رسائل ابن أبي الخصال، ص ٢٣٤.
11. سورة نوح: الآية ١٤

12. سورة النور: ٤٥
13. سورة الأنعام: الآية ٣٨
14. سورة المؤمنون: الآية ٢٠
15. سورة الصافات: الآية ٦٤.
16. سورة الدخان: الآية ٤٥.
17. رسائل ابن أبي الخصال، ص ٥٢ – ٥٣.
18. رسائل ابن أبي الخصال، الصفحات ٩٧ – ١٠٠ و ١٠٤، ١٠٧، ١٢٢، ١٤٣، ١٤٦، ١٩٥، ١٩٧، ٢٠٢، ٢٠٥)
19. رسائل ابن أبي الخصال، ص ٣١٨ – ٣١٩.
20. مسند الإمام أحمد،حققه وأخرج أحاديثه سعيد الأرنؤوط وعادل مرشد ومحمود فؤاد عبد الباقي، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١، ٦ /ص ٣٨٦
21. سنن الترمذي،للإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٧٧، ط٢، مجلد ٤ ص / ٢٧.
22. المصدر ذاته (٤: ٢٨)
23. المصدر ذاته (٤: ٢١)
24. رسائل ابن أبي الخصال، ص ٩٥.
25. رسائل ابن أبي الخصال، ص ١٨٤ – ١٨٥.
26. رسائل ابن أبي الخصال، ص ٣٦٢ - ٣٦٣.
27. ينظر: صحيح الجامع الصغير، جلال الدين السيوطي، ج ١، ط١، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٩، ص٤٣٩.
28. شرح الشفا، نور الدين علي، المطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٩٠٩، ص٢٢٧.
29. ينظر: قيم جديدة للأدب العربي القديم المعاصر، بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠، ١٥٩.
30. ينظر: توظيف التراث في المسرح، حسن علي المخلف، ط١، ٢٠٠٠، مطبعة الأوائل بسوريا، ص٢٠.
31. رسائل ابن أبي الخصال، ص ٦٢ – ٦٣.
32. ديوان الحارث بن حلزة: ص ١١١.
33. ديوان أبي ذئيب الهذلي، ص ٥٠.

34. رسائل ابن أبي الخصال، ص٢٩٥.
35. منبثة: من نبث: أظهر وباع.
36. رسائل ابن أبي الخصال، ص ١٨٤ - ١٨٥.
37. ديوان النابغة الذبياني، ص ٢٥.
38. ديوان عنترة بن شداد، ص ١٧.
39. أحكام صنعة الكلام، ص ٦٢.
40. رسائل ابن ابي الخصال، ٥٩ – ٦٠.
41. ديوان قيس ابن الملوح، ص ٧٦.
42. رسائل ابن أبي الخصال، ص ١٧٨.
43. المصدر نفسه، ص ٤١٦.
44. جمهرة الأمثال / العسكري، ت ٣٩٥ هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد الحميد قطامش، دار الفكر بيروت، ط٢، ١٩٨٨ ج ١، ص، ١٠٠)
45. ينظر: جريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهاني، تحقيق عمر الدسوقي وغلي غبد العظيم، دار النهضة للطباعة والنشر، القاهرة، ج٢١، ص١٦٤.
46. مجمع الأمثال، للميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت لبنان، ج٢، ص ٤٥.
47. المصدر ذاته.، ص١٢٩.
48. رسائل ابن أبي الخصال، ص ٢٢٦.
49. معجم الأمثال، ١، ص ٤٦٤.
50. رسائل ابن أبي الخصال، ص ١٨٩

المصـــادر:

القرآن الكريم

١. احكام صنعة الكلام، عبد الغفور الكلاعي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦.

٢. التحليل النقدي والجمالي للأدب، عناد غزون، دار آفاق عربية للصحافة والنشر، بغداد، ١٩٨٥.
٣. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٩ م.
٤. تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، محمد فتاح، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥.
٥. توظيف التراث في المسرح، حسن علي المخلف، مطبعة الأوائل بسوريا، ط١، ٢٠٠٠ م.
٦. جمهرة الأمثال، للعسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل وعبد الحميد قطامش، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٨٨ م.
٧. خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهاني، تحقيق: عمر الدسوقي، وعلي عبد العظيم،، دار النهضة للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت.
٨. ديوان أبي ذؤيب الهذلي، تحقيق: أحمد خليل الشال، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، بور سعيد، دار الكتب المصرية، ط١، ٢٠١٤ م.
٩. ديوان الحارث بن حلزة، تحقيق: مروان العطية، دار الإمام النووي للنشر و التوزيع، دمشق، ١٩٩٤.
١٠. ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: حنا ناصر الجيتي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١ ١٩٩١.
١١. ديوان عنترة بن شداد، تحقيق: فوزي عطوي، بيروت – لبنان، د. ت.
١٢. ديوان قيس بن الملوح، رواية أبي بكر الوالبي، دراسة وتعليق: يسري عبد الغني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩.
١٣. رسائل ابن أبي الخصال، محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق – سوريا، ط١، ١٩٨٨.
١٤. سنن الترمذي، تحقيق: محمد شاكر،، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، ١٩٧٧.
١٥. شرح الشفا، نور الدين علي، المطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٩٠٩.
١٦. صحيح الجامع الصغير، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٧٩.

١٧. علم لغة النص، عزة شبيل محمد، تقديم د. سليمان العطار، القاهرة، ٢٠٠٧.
١٨. قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠.
١٩. مجمع الأمثال، الميداني، تحقيق: محي الدين عبد الحميد / دار المعرفة، بيروت – لبنان، ١٩٥٥.
٢٠. مسند الإمام أحمد، تحقيق: سعيد الأرنئوط و عادل مرشد و محمود فؤاد عبد الباقي، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١.